رئيس محكمة النقد!

«١»

هو ذلك الرجل الذي لا تبهره الصورة لكن ينظر إلى خلفيتها، ولا تخطفه الكلمات البراقة، وإنما يبحث عن معانيها الحقيقية، ولا تجذبه الأضواء حتى وإن وصلت إلى أقرب مَن يجلسون معه ولم تصل إليه، ولا تشغله المناصب حتى وإن كانت الضمان الوحيد لحياة كريمة، فقد عاش أغلب عمره لا يملك أربعة جدران يعيش فيها، وكان كلّما وجد شقة مناسبة اكتشف أن البيت آيل للسقوط، وحين وجد السكن الدائم كانت حياته قد قاربت على الانتهاء.

هو السامي بحقّ، سامي السلاموني، الناقد والزاهد والمثقف والمفكر والساخر، فقد كان مفكرا سينمائيًّا، وناقدًا لاذعًا، وساخرًا كبيرًا، يهاجمك بحدة وبعنف لكن بحب، فلم يكن يكره مَن ينتقدهم، فقد كان يؤمن بعبقرية يوسف شاهين لكنه انتقده بشدة حين اختار لبطولة فيلم «اليوم السادس» محسنة توفيق ثم فردوس عبد الحميد ثم سعاد حسني ثم داليدا، وتساءل السلاموني: كيف يصلح لسعاد حسني ومحسنة توفيق ما يصلح لداليدا؟ هذا يدل على أن شاهين يعتبر الممثلين مجرد قطع شطرنج!

وحين شاهد فيلم «خلّي بالك من زوزو» الذي كتبه وأنتجه صلاح جاهين، انتقد الفيلم بشدة في مقال طويل وقال: «إن

الفيلم يتناقض مع تاريخ جاهين الفني والفكري والدور الذي لعبه كفنان ملتزم بقضايا وطنه، وجعل جيلا كاملا من الفنانين الشبان مَثَلهم الأعلى صلاح جاهين».

هكذا ظل سامي السلاموني دائمًا، يمكن أن تخالفه الرأي لكن لا يمكن أن تختلف على موهبته وقدراته وصدقه وعلمه؛ فقد تخرج في المعهد العالي للسينما، وحصل على الدراسات العليا في الإخراج عام ١٩٧٣، علاوة على ليسانس الآداب قسم صحافة.

«٢»

كان نحيل الوجه، له حسنة بارزة، وأنف طويل يقسم الوجه إلى قسمين، فكأن العينين تنظران من خلف قضيب يفصل بينهما في حسم وصرامة، أما رأسه فقد نحل بفعل الزمن فلم تكن شعرة واحدة فيه إلا وقُصفت أو خُطفت، ولكن الرأس كان مناسبا لجسد ضئيل كحزمة من الضوء تنبعث من كشاف سيارة على الطريق السريع، ولقامة قصيرة تمشي بخطًى سريعة مهرولة، ولكن في انضباط وحنكة لا تتوافر إلا لصعلوك جوَّاب آفَّاق في رحلة دؤوب.

هكذا وصف خيري شلبي، المبدع سامي السلاموني، ذلك المثقف الذي تعلق بالقراءة، فقد تعود منذ كان طفلا صغيرًا أن يذهب صباح كل يوم لشراء الصحف والمجلات لوالده، وكان يجلس في أي مكان يقابله ليقرأها قبل أن يعود إلى أبيه، فوقع أسيرًا في هوى الصحافة، وتمنى أن يصبح واحدًا من نجومها، فبعد أن حصل على شهادة التوجيهية، رحل إلى القاهرة ليكون قريبًا من حلمه، ولكن حدث ما قلب الموازين رأسًا على عقب.

فقد رحل والده، تاركًا خلفه أولاده الصغار أمانة في رقبة ابنه سامي الذي اضطرّ إلى أن يعمل قارئًا لعدادات الكهرباء، وأن يسكن في حجرة صغيرة في بيت آيل للسقوط في حي بولاق، لكنه تغلب على كل هذا، وعمل ودرس، وحصل على أكثر من شهادة، وأصدر عدة كتب، وقام بعمل العديد من الأفلام التسجيلية، وحصل على العديد من الجوائز في النقد والسيناريو والإخراج.

لكنه لم يترك هذه الحجرة «وش السعد عليه» حتى حين صار مشهورًا، ولم يتسلل الغرور إلى قلبه أو قلمه الذي ينتقد أعظم نجوم الفن من مكتب صغير في حجرة متواضعة اضطر إلى أن يغادرها حين تقرر هدمها!

«٣»

ظهر السلاموني في مشهد واحد فقط، في فيلم «الحرّيف»، لكن الدور كان بسيطًا وهامشيًّا، فهو لم يحلم أن يكون ممثلا، فهو يدرك أنه لا يملك هذه القدرات، لكنه بحث كثيرًا عن اكتشاف مواهبه، فقد استمر ثلاثة أشهر كاملة يكتب أولى قصصه القصيرة، وعندما انتهى منها أخذها وذهب إلى عبد الفتاح الجمل الذي كان مشرفًا على الملحق الأدبي والفني في جريدة «المساء»، ولكنه سرعان ما تلقى أولى صدمات حياته العملية في عالم الكتابة.

فلم يُعجَب عبد الفتاح الجمل بقصة سامي السلاموني، ونصحه أن يتجه إلى كتابة المقال، وبالفعل اتجه إلى المقال النقدي، وحين نشر أول مقال له حظيَ باهتمام بالغ لدرجة

جعلت سامي يشتري مئات النسخ من الجريدة ويوزّعها على الأقارب والأصدقاء، بل ويرسل بعض النسخ إلى أهل قريته «سلمون القمَّاش» في محافظة الدقهلية!

لكن بعد نشر هذا المقال انطلق كالشهاب، عارفًا طريقه الذي لم يَحِد عنه أبدًا، فقد كان يرى أن الناقد مثل القاضي الذي يجلس على منصة العدالة متجردًا من أي هوى شخصي -على حد تعبير الأستاذ عادل حمودة- لذلك كان يدفع ثمن تذكرة السينما من جيبه، ولا يكتب في كثير من الأحيان إلا بعد أن يشاهد الفيلم أكثر من مرة، ويسجل ملاحظاته على الفيلم في ورقة صغيرة يكتبها على ضوء خافت وهو جالس في السينما.

لم يكن السلاموني صديقًا إلا لعدد محدود من النجوم عرفهم قبل أن يصبحوا نجومًا مثل أحمد زكي، وهذا بدهي لناقد لا يقف إلا مع مَن يراه على حق، فذات مرة احتدت الفنانة شهيرة على جمهور المسرح الذي قاطعها، فشتمتهم وانسحبت، وخرجت الأقلام الحادة تمزقها تمزيقًا، لكن سامي السلاموني قال: من حق أصغر كومبارس أن يصغي إليه الناس ويحترموه، لكن هذا الجمهور المتوحش الذي يعتقد أنه اشترى كل شيء بفلوسه يستحق ما فعلته شهيرة!

تلك الواقعة التي رواها الدكتور أحمد خالد توفيق، تؤكد أن هذا الرجل انتقد كل شيء حتى الجمهور ذاته!

لكنه بجانب النقد لم يكفّ عن شيئين هما الغضب والتدخين الذي كان ينفّث فيه عن غضبه، لذلك لم يتحمل قلبه، وضاقت شرايينه، ورحل في يوليو ١٩٩١ بعد أن أتم عامه الخامس بعد الخمسين.

فرعون في شوارع القاهرة!

«١»

كان بمثابة فرعون بُعث ليسير في شوارع القاهرة في القرن العشرين، احتفظ لنفسه بكل سمات الفراعنة كما نشاهد تماثيلهم المحنطة، ينطلق بخطى ثابتة وواثقة، وشموخ وهدوء، ويبدو عملاقا رغم قصر قامته!

هكذا بدا الأديب الأثري كمال الملاخ لكل من رآه وعرفه، لذا كان بدهيًّا أن يكون مختلفًا ومخالفًا للأنماط السائدة، وفريدا في تفرده، ومتفردا في ثقافته؛ فجمع بين دارسة الفنون الجميلة، وعمله كمهندس متخصص في شؤون الآثار، وقدرته على الكتابة العميقة دون تعقيد، ليجمع بين عضوية نقابة الصحفيين، وعضوية الجمعية الجغرافية العالمية في الولايات المتحدة التي اختارته عضوًا فخريًّا بها مدى الحياة.

قيمة الملاخ الكبرى أنه نموذج مدهش لما يجب أن يكون عليه الصحفي؛ فهو عالم وفنان وأديب، وقد بدت مواهبه واضحة منذ كان طالبا لم يتجاوز عمرة الستة عشر عامًا، حين لمعت في ذهنه فكرة أن يدعو عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين -الذي كان يقيم في الفيلا المقابلة لكلية الفنون بالزمالك- ليفتتح معرضه، ويشاهد لوحاته، وبالفعل حضر طه حسين، وطاف به الملاخ شارحا لوحاته في ثقة وهدوء.

ومرت سنوات والتقيا مرة أخرى بعد أن صار الملاخ معيدًا

بقسم العمارة في كلية الفنون الجميلة، وفي أثناء سير الملاخ بجوار عميد الأدب العربي الذي كان يعمل مستشارًا فنيًّا لوزارة المعارف، قال مخاطبا الملاخ: «أنا سمعت بموهبتك من توفيق الحكيم، وأتمنى أن تنمّيها بدراسة الآثار»، فاندهش كمال وقال: «وأنا مالي ومال والآثار، فقد عقدتُ العزم على أن أكون مع الأيام أستاذًا للعمارة والفن؟!»، ولكن العميد رد بحسم: «وهل الآثار إلا عمارة وفن؟!».

واستجاب الملاخ والتحق بالجامعة لدراسة الآثار، وحصل على دبلوم عالٍ في الآثار المصرية مثل كبار علماء الآثار، ثم صار مهندسا ومديرا للأعمال في منطقة الهرم، بعد أن جاب الصعيد منقِّبًا ومتفحصًا آثاره.

«٢»

وفي ٢٥ مايو ١٩٥٤، طلب كمال الملاخ من مصلحة الآثار أن يعيد البريق إلى الهرم الأكبر بتنظيف الطريق المؤدى إليه من الرمال المتراكمة فوقه، فتمت الموافقة وبدأ العمل، وفي أثناء عملية التنظيف جاءه كبير العمال ليقول له: لقد عثرنا على «دبش»!

شعر الملاخ أن هناك شيئًا ما خلف هذا «الدبش»، فبدأ النَّبْش خلفه، وقام بحفر ١٨٠ مترا وراء هذا الحجر الكبير فاكتشف سورا يبلغ طوله نحو ١٥٠ مترا، ثم عثر على أحجار جيرية تحت السور، ثم بدأ يطرق أبواب الأحجار، فشاهد شيئًا أسود لم يحدده، لكن بعد أن تفحصه، انتفض صائحًا في من حوله «مركب.. دي مراكب الملك خوفو يا جماعة»!

كانت هذه المراكب عبارة عن عدة ألواح خشبية يبلغ طول الواحد منها نحو ٤٣ مترًا، وعرض اللوح ستة أمتار، ولكنها مفككة الأجزاء، فأعطى الملاخ الإشارة لإعادة نفس ترتيب وترقيم وتركيب هذه القطع الخشبية القديمة التي وُجدت في حفرتين بجوار الهرم الأكبر ليرى العالم ما كانت عليه مراكب الشمس منذ ما يقرب من ٥٠٠٠ عام، وقد كان فراعنة مصر واضعين علامات بين الأجزاء المتشابهة والتي يتداخل بعضها مع بعض. ومن العجيب أن جميع الأجزاء لا يربطها مسمار ولكنها يتداخل بعضها مع بعض.

لم يُصدق الملاخ نفسه من الفرحة بعد اكتشافه لواحد من أكبر الاكتشافات الأثرية في القرن، فخرج معلنًا عن الاكتشاف الكبير الذي احتفى به كل علماء الدنيا، ونقلته وكالات الأنباء، وعُرفت مراكب الملك خوفو باسم «مراكب الشمس» لكن حين عاد الملاخ إلى مقر عمله في مصلحة الآثار وجد ورقة مُعلقة باسمه في كشف «الخصومات»، فقد عوقب بخصم عشرة أيام من راتبه لأنه أعلن عن الكشف دون إذن!

لم تكن مراكب الشمس هي السيمفونية الوحيدة التي عزف عليها الدكتور الملاخ، فالرجل له إنجازات لا تقل أهمية عن مراكب الشمس؛ إذ عمل على ترميم آثار جزيرة فِيَلَه بأسوان، وكشف عن حمام سباحة يوناني قديم، ورمَّم هيكله، وقام بترميم قلعة برج العرب، وفي سنة ١٩٤٩ قام بترميم أهرام الجيزة من الداخل والخارج.

«٣»

وقبل واحد وعشرين عامًا، وتحديدًا في ٢٦ أكتوبر عام ١٩١٨، بعد أربع سنوات من اكتشاف مقبرة توت عنخ أمون وبداية الحرب العالمية الأولى التي انتهت بانتصار إنجلترا وحلفائها وهزيمة ألمانيا، قرر السلطان أحمد فؤاد أن تتحمل الخزانة المصرية ثلاثة ملايين ونصف المليون جنيه ديونًا كانت لمصر على إنجلترا في أثناء الحرب، وذلك اعترافًا بجميل بريطانيا التي حمت البلاد من خطر الغارات! ولم يعرف المصريون هذا القرار الذليل في حينه.

وتقدم سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وعلى شعراوي بطلب للمندوب السامي البريطاني للسفر إلى لندن لعرض مطالب مصر لكنه لم يستجب، وقال لهم: «مَن أعطى لكم حق التحدث نيابة عن الأمة؟»، فقرر الثلاثة تكوين جبهة ضمَّت عددًا كبيرًا من رموز العمل الوطني لجمع توكيلات من الشعب المصري، وقد نَصّ التوكيل على: «نحن الموقعين على هذا قد أنبنا عنا حضرات... في أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة، حيثما وجدوا للسعي سبيلا في استقلال مصر استقلالا تامًّا»، وتم طبع التوكيل ليلا وبأعداد كبيرة خرج بها آلاف الشباب إلى مختلف المحافظات.

كان هذا العام حافلا بالأحداث الهائلة، وبميلاد عدد كبير من النجوم اللامعة في السياسة والفن والأدب والصحافة والثقافة، فقد وُلد الزعيم جمال عبد الناصر، والرئيس أنور السادات، والفنانة ليلى مراد، والمطرب والملحن الشيخ إمام، والأديب

المسرحي نعمان عاشور.

في هذا العام وُلد الأديب والأثري والصحفي والفنان كمال يونان الملاخ في محافظة أسيوط، أَحبَّ أسرته وارتبط بوالدته بشدة، وقبل أن يصل لسن المدرسة انتقل والده للعمل بأحد البنوك في المحلة الكبرى، فتلقَّى الطفل كمال تعليمه الابتدائي هناك، ثم أتمَّ تعليمه الأساسي في القاهرة في مدرسة «السعيدية» ليلتحق بعدها بكلية الفنون الجميلة قسم العمارة ليصقل موهبته، وبدأ حياته العملية مهندسًا معماريًّا، ثم ضابط احتياط بسلاح المهندسين، ثم انتقل للتدريس في كلية الفنون الجميلة ومعهد السينما والجامعة الأمريكية بالقاهرة، قبل أن يتجه إلى بلاط صاحبة الجلالة ليعمل رسامًا ثم ناقدًا فنيًّا في جريدة «الأهرام» عام ١٩٥٠.

وفي أثناء كتابته في «الأهرام» كان صاحب فكرة إقامة مهرجانات سينمائية دولية في القاهرة والإسكندرية فصار أول رئيس لمهرجانَي القاهرة والإسكندرية السينمائيَّين، وكتب المادة العلمية لـ١٨ فيلمًا ثقافيًّا قصيرًا عن الفراعنة، وشارك في ترميم أبو الهول والأهرامات، وقدم لـ٣٢ كتابًا في شتى فروع الثقافة من بينها «صالون من ورق»، و«حكايات صيف»، و«النار والبحر»، وهي الكتب التي تسجل براعة كاتب بدرجة عالم.

obeikandl.com

إلى الذيـن يحبون الحقيقة

من أخطر عيوب مصر أنها تسـمح للرجل العادي المتوسـط، بل للرجل الصغير، بأكثر مما ينبغي وتُفسـح له مكانًا أكبر مما يسـتحق.

جمال حمدان

obeikandl.com

obeikandl.com

عذوبة أحمد بهجت!

«١»

أجمل شيء في الدنيا هو الفُرجة!

متعة المتع أن تكون مشاهدًا للعصر، لا شاهدًا عليه، ومتفرجًا عليه لا منغمسًا فيه. إن السلامة كل السلامة تقبع في ذلك، وأنا رجل مسالم بالفطرة، وهذا معناه أنني مؤرِّخ بالفطرة، لست عضوًا في جمعية للمؤرخين، ولم يطلب مني أحد أن أؤرخ لشيء، غير أن عينيَّ لا تكفَّان عن التجول والملاحظة والتأمل!

التأمل وحده هو من جعل عمنا أحمد بهجت يملك تراثًا بديعًا يجعله يجلس في قبره آمنا مطمئنا راضيا عن عمل يُنتفَع به.

ففي كل عام تتم الاستعانة بجزء من هذا التراث لتقديم عمل رمضاني مهمّ ومحترم ومختلف وجاذب، فأحمد بهجت هو صاحب «قصص الإنسان في القرآن»، و«قصص الحيوان في القرآن»، و«أنبياء الله»، و«تأملات في عذوبة الكون»، و«الطريق إلى الله».

لكن في طريق أحمد بهجت إلى الله أخطأ في أربعة أشياء، يقول عنها: «توهمتُ أني أذكره وأعرفه وأحبه وأطلبه، فلما سِرتُ قليلا في الطريق رأيتُ ذِكره سبق ذكري، ومعرفته تقدمت معرفتي، ومحبته أقدم من محبتي، ورأيته قد طلبني أولا قبل أن أطلبه... ذكرني الله قبل أن أذكره: حين صنع آدم بيديه

وأمرني أن أستقر ذرة في كيانه انتظارًا ليوم الخروج.

وعرفني الله قبل أن أعرفه: خلال رحلتي الطويلة من ظهر آدم إلى ظهور أبنائه إلى سيقان النبات إلى حشائش الأرض إلى أجنحة الفراش الملوّن إلى ثمار الأشجار إلى رحم الأم إلى ظهر الحياة.

وأحبني الله قبل أن أحبه: حين هدى أبي فآمن بنوح وركب سفينته.

عرفت أيضًا أن الله طلبني قبل أن أطلبه: طلبني حين سار إبراهيم بقدميه الكريمتين في الخلاء آلاف الساعات حتى تشققت قدماه وسال منها الدم كي يبني لي بيتًا أتوجه إليه في الصلاة».

«٢»

حين التقيتُ الأستاذ أحمد بهجت في مكتبه في جريدة «الأهرام»، ويومها كنت ما زلتُ طالبًا في الفرقة الثانية، وكنت أتابع كتاباته بشغف في «الأهرام» ومجلة «الشباب» وأنتظر حواراته المحدودة جدًّا، وكنت أحمل سؤالا واحدًا إليه يهمني أن أعرف جوابه لكي أتعلم لا لكي أحصل على حوار، سألته: كيف يمكن لصحفيّ شاب أن يصنع أسلوبًا يعرفه القارئ من خلاله؟ فأجاب قائلا: «إن أهم ما يفعله الصحفي في بداية حياته المهنية هو أن يجد كاتبًا كبيرًا يقلده، ولكن ينبغي أن لا يستمر هذا التقليد إلا لفترة محدودة حتى يمتلك الصحفي أدواته ويستطيع صياغة أسلوبه الخاص، ويختار طريقًا لا يسير فيه أحد سواه، هذا ما فعلته مع توفيق الحكيم، فقد كنت أحفظ مفرداته لدرجة أنني كنت أحفظ مقاطع من كتبه،

وظللت كذلك حتى ابتكرتُ أسلوبي الخاص الذي لا يشبه أحدًا، ولكن هذا الأسلوب صنعتْه قراءة واعية، فالكاتب الجيد ينبغي أن يكون قارئًا جيدا جدًّا».

هذا هو الدرس الذي لم أنسه، ولا أظن أنه من الممكن نسيانه، فلا يمكن أن تكون كاتبًا إلا إذا كنت قارئًا محترفًا، لكن مستوى الاحتراف هو الذي يختلف، ففي جيل العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم كان مَن يقرأ مئة ألف كتاب هو كاتب متوسط، ثم في الجيل التالي صار مَن يقرأ خمسين ألف كتاب كاتبًا جيدًا، وظل الحال هكذا حتى صار مَن يقر أ كتابين يظن نفسه مثقفًا، ومحللا، وخبيرًا استراتيجيًّا، ومفكرًا أيضا!

لكن أحمد بهجت نشأ وكبر وصار نجما في جيل أغلبه اشترى بيتًا كاملا من أجل كتبه التي لا يمكن حصر عددها ولا يمكن أن تحويها مكتبة، وعلاوة على ذلك لا يعترف هذا الجيل إلا بقراءة أمهات الكتب؛ فالكتب صغيرة الحجم قليلة المعرفة، لذلك كان أحمد بهجت نَهِمًا في قراءة أمهات الكتب، ولعل ذلك يبدو جليًّا في أغلب مؤلفاته، التي يعد بعضها سَيرًا على درب الأوّلين ممن جعلوا الكتابة فنًّا أمثال الجاحظ والقزويني والمقريزي وغيرهم ومَن سار على دربهم.

لكن أهم ما ميَّز أحمد بهجت هو أنه جعل الكتابة في السير الدينية فنًّا لا وعظًا، فقد استخدم حسه الفني، وقدراته الدرامية ومهاراته الصحفية في جعل كتب السِّيَر تدخل القلوب وتنير العقول ولا يَمَلَّها أحد.

«٣»

هو صوفيُّ الهوى، لكنه يملك عينَ ساخر، وقلبَ عاشق، وعقلَ فيلسوف، وقلمَ مؤرخ، وذكاءَ فنان، وفطنةَ عالم، ودأبَ طالب علم.

لذا أهم ما يميز أعماله أنها ذات شخصية واحدة وإن تنوعت، ومؤلفاته بمثابة كتلة واحدة نزلت لتسد فراغًا في المكتبة العربية، ورغم ذلك لم يدِّعِ علمًا أو عبقرية، لكن المدهش أن صاحب الموهبة الكبرى في كتابة سِيَر الأنبياء هو نفسه كاتب السيناريو لفيلم «أيام السادات»، ورغم النجاح الساحق للفيلم فإنه لم يفكر في تكرار التجربة، ولم يكتب طوال حياته سوى هذا الفيلم، ربما اعتبرها هواية لا يريد أن يتكسب منها فتصبح «غواية»، وهو نفس ما فعله قبل قرابة نصف قرن من كتابته لهذا الفيلم، فقد كان يكتب واحدًا من أشهر البرامج في تاريخ الإذاعة المصرية وهو برنامج «كلمتين وبس» الذي كان يقدمه الراحل الرائع فؤاد المهندس، لكن أيضًا لم يكرر التجربة!

وهكذا ظل طوال حياته لا يكرر نفسه منذ عمل صحفيًّا في مؤسسة «أخبار اليوم» عام ١٩٥٥ ثم في مجلة «صباح الخير» عام ١٩٥٧، ثم انتقل عام ١٩٥٨ للعمل بصحيفة «الأهرام» بعد أن تولى محمد حسنين هيكل رئاسة تحريرها، وفي ١٩٧٦ تولى رئاسة تحرير مجلة «الإذاعة والتليفزيون»، ثم تركها وعمل نائبًا لرئيس تحرير «الأهرام»، وبدأ كتابة عموده اليومي «صندوق الدنيا» الذي لم يتوقف عن كتابته حتى توقف قلبه في ١١ ديسمبر من عام ٢٠١١، لكنه لم يحصل على نصف ما يستحق

مـن الاهتـمام، لدرجـة أن البعـض يخلـط بينـه وبـين رجـل الأعـمال الـذي يحمـل نفـس الاسـم، ليظـل أحمـد بهجـت مظلومًـا في حياتـه وبعـد رحيلـه.

obeikandl.com

obeikandl.com

هذا أو الطوفان

«١»

دخل علَى المنصور وفد من وفود الأقاليم، ووقف خطباء بعض الوفود يدبِّجون تحيّات يُزْجُونها إلى المنصور، وبينما كان أحدهم يتكلم ويسرف على نفسه في المديح إذ شقّ الصفوف غلام من وفد آخر لم يأت دوره في الحديث، وصاح: «كلاّ يا منصور.. إنهم ليقولون منكرًا من القول وزورًا، ووالله إن الناس ليستعْدُون عليك سهام القدر ودعاء السحر، ويسألون الله في حياء قائلين: يا ربنا، لماذا خلقت المنصور؟ وإذا كان لا بد أن تخلقه، فلماذا رزقتنا به؟»!

وانبهر المنصور، وفاح البِشْرُ في وجهه، وسأل الغلام قائلا: «مَن الوليّ الذي يحكمكم.. فوالله إنك لحسنة من حسناته، ولولا أنه يُحسن تأديبكم لما وجدناك هكذا شجاعًا؟!».

الغلام قال الحقيقة، وعلا صوته، ولم يخشَ سوط الملك، ولم يكن طامعًا في ذهبه، وهكذا كان أيضًا خالد الذِّكر المفكر خالد محمد خالد، فلم يكن طامعًا في سلطة، أو راغبًا في نفوذ، أو باحثًا عن شهرة، أو لاهثًا خلف المال، لذلك كان يقول ما يعتقد أنه الحق، لكنه لم يفرض ما يقوله على أحد، ولم يدَّعِ أن ما يقوله هو الحق المطلق.

كان محبًّا للحق، ولو كان مع غيره، وكان عاشقًا للحقيقة وباحثًا عنها، ولاهثًا خلفها، ومضحيًّا من أجلها، وقائدِا من

قادتها، وفارسًا من فرسانها، وقادرًا على تحمل تبعات كشفها!

فالحقيقة على قدر صدقها، على قدر صعوبة الاعتراف بها وتحمُّل عواقبها، وكتاباته كان فتحًا جديدًا ومختلفًا، فهو يؤمن بأنه من دون شجاعة لا توجد حقيقة، ومن دون حقيقة لا توجد فضيلة، لذلك حين أهدى كتابه «هذا أو الطوفان» قال «إلى الذين يحبون الحقيقة، وأيضا الذين يكرهونها، لأن الحقيقة لا تحمل ضِغنًا لأحد».

كان خالد يبحث في كتب التراث والسِّيَر والتاريخ عن وقائع مغايرة لما نعرفه، وعن رؤية مختلفة لما اعتدنا سماعه، ولم يكن ناقلا للأفكار بل كان صاحب مدرسة فكرية مستقلة ومستقيمة، تقرأ وتهضم وتحلل وتفسر، ثم تستخلص رؤية جديدة بعد قراءة عميقة.

لذلك لم يكن يجلس للكتابة إلا إذا استشعر الحاجة الملحَّة إلى ذلك وتكون الفكرة التي يريد الكتابة عنها قد نضجت وطلبت الظهور، حينئذ يجلس في أي مكان وفي أي ظروف ويبدأ في الكتابة دون أن يلتفت إلى ما حوله أو ينشغل به، وقد تمضي من حياته سنوات دون أن يكتب فيها شيئًا لأنه لم يجد في نفسه ما يبعث على الكتابة.

«٢»

وفي عام ١٩٥٠ أصدر المفكر خالد محمد خالد كتابه «من هنا نبدأ» فتمتْ مصادرته بعد بلاغ رئيس لجنة الفتوى بالأزهر!

وجاء في عريضة الاتهام أن المؤلف تعدَّى على الدين الإسلامي، وصوّر الحكومة الدينية بخصائص تبعث في النفوس محاربة هذا

النوع من الحكم، وقال إن القرآن والسُّنة فيهما من الغموض والاحتمالات ما يجعلهما غير صالحَين لأن يكونا أساسًا صالحًا للحكومة.

هنا دخل الشيخ محمد الغزالي المعركة، ولكن بسموّ يليق بمكانه ومكانته، فقرر أن يرد على ما كتبه الأستاذ خالد ويفنِّد كلامه، ولكن في كتاب أيضًا أطلق عليه «من هنا نعلم»، ولكن المدهش أنه بدأ كتابه بالدفاع عن خالد محمد خالد قائلا: «قد تحدث الناس أن الأزهر سحب شهادة العالمية من الشيخ خالد، وأنا أرى أن الأزهر يكيل بكيلين، فهل هو يحاسب على الخطأ العلمي أم على الخطيئة النفسية كذلك؟!».

إن الشيخ الغزالي كان واعيًا أن مواجهة الرأي يجب أن تكون بالرأي لا بالمصادرة والمنع والتخويف والتسخيف لمن يريد إصلاحًا حقيقيًّا، لا البحث عن بطولة زائفة!

ما فعله الغزالي كان سببا في مراجعة المفكر الكبير لأفكاره، بل والتراجع عن بعضها في كتاب آخر هو «الإسلام دين ودولة».

وبغضّ النظر عن رؤية هذا أو ذاك، فإن ما يعنينا هنا ليست المعركة ذاتها ولا حتى نتائجها، فالمعارك الفكرية ليس فيها فائز وخاسر -مثل كرة القدم- وإنما هي مناقشة حرة هدفها الوصول إلى الحقيقة، والتعرف على رؤى مختلفة، ومواجهة الحُجة بالحُجة، لا بالضرب أو بالسجن أو بالمصادرة.

لم يحاول الغزالي تشويه خالد رغم أنه كان بإمكانه أن يُقيم الدنيا ولا يُقعدها، بل قال في مقدمة كتابه: أحب أن أذكر أني صديق للشيخ خالد محمد خالد منذ سنين، ولكن ابن القيم لما رأى عِوجًا في كلام شيخ الإسلام إسماعيل الهروي، وكان صديقًا له قال «شيخ الإسلام حبيب إلينا والحق أحبّ إلينا منه».

إنها معارك لوجه الحق أيًّا كان صاحبه.

لكن هناك دائمًا مَن يفسدون كل شيء في كل زمان، ففي الوقت الذي كانت فيه معركة خالد والغزالي تدور في فلك فكري راقٍ، تبرع بعض المشايخ بالذهاب إلى المحكمة لمحاكمة الكاتب والكتاب، لكن المستشار محمد فتحي نجيب أصدر حكمه بأن المؤلف لم يخرج في ما كتب عن حد البحث العلمي والفلسفي، وإذا صحّ أنه أخطأ في شيء مما كتب فإنّ الخطأ المصحوب باعتقاد الصواب شيء، وتعمُّد الخطأ المصحوب بنية التعدي شيء آخر، ولما كان شيء من ذلك لم يتوافر في حق المؤلف فلا جريمة ولا عقاب!

«٣»

لكن قبل ثلاثين عامًا نشرت «الوقائع المصرية» قرارًا جاء فيه: «نظرا لما تنشره الصحف من المقالات التي تُخلّ بسلطة الحكومة، والتي من شأنها الإغراء على إحداث إضرابات، ستكون الرقابة سابقة للنشر ابتداء من ٦ مارس»، ولذلك ظلت الصحف لفترة تصدر بها مساحات بيضاء، كان بها موضوعات ألغاها الرقيب!

في هذا التوقيت دبَّت بذور الخلاف داخل الحركة الوطنية، ودارت مشادة كلامية في باريس بين الزعيم سعد زغلول ورفاق ثورة ١٩، وعلى رأسهم عبد العزيز فهمي لاختلافهم حول المشروع الذي طرحه ملنر، ووصل الخلاف إلى درجة جعلت سعد يرى أن مَن يوافق على هذا المشروع الذي لا يمنح مصر استقلالها كاملا خائن للأمانة، وحينها رد عليه عبد العزيز فهمي قائلا له: «يا

ريس.. لست أنت الوطني الوحيد الذي أنجبتْه مصر»!

في هذا التوقيت وتحديدًا في السابع والعشرين من رمضان عام ١٩٢٠ في قرية «العدوة» إحدى قرى محافظة الشرقية، وُلد المفكر خالد محمد خالد.

وحين أتمَّ الخامسة من عمره التحق بكُتاب القرية، ثم التحق بالأزهر الشريف، وأتم حفظ القرآن كاملا في خمسة أشهر فقط، وظل يدرس على يد أعلام مشايخ الأزهر طيلة ستة عشر عامًا حتى تخرج في كلية الشريعة، ثم عمل بالتدريس لعدة سنوات حتى تركه نهائيًّا سنة ١٩٥٤، ثم تنقل بين عدة وظائف حتى قرر الخروج الاختياري إلى المعاش عام ١٩٧٦.

وآثر خالد أن تبقى حياته بعيدة عن الأضواء والمناصب والصراعات فرفض عروضًا كثيرة للعمل خارج مصر، ورفض أيضًا أن يتولى أي منصب عُرض عليه في عهدَي عبد الناصر والسادات، بل إنه واجه عبد الناصر في عنفوانه في قضايا الحريات، لكنه ظل طوال حياته زاهدًا متصوفًا قانعًا محبًّا للمعرفة ومشغولا بالآخرة ومؤثِّرا في الدنيا.

obeikandl.com

كاتب يزعج السلطات

«١»

نـادرًا ما يظهـر بيننا مثيل له.

فهـو ظاهـرة لا تظهـر كثـيرًا، رجـل لديـه معرفـة حقيقيـة، وعلـم واسـع، وذكاء حـاد، ورؤيـة ثاقبـة، وهـدف واضـح، وقـدرات خاصـة، وبصـيرة.

رجـل عظيـم بحـق، لكننـا لا نصـدق أن عظيـمًا يعيـش بيننـا إلا بعـد رحيلـه، ولا نسـتطيع أن نعـترف بتفـرده إلا بعـد أن يذهـب إلى الـدار الآخـرة، ولا نقْـدُره حـق قـدره إلا بعـد أن يسـكن قـبره.

عبـد الوهـاب المسـيري كان عظيـمًا في علمـه وعملـه وتواضعـه ودأبـه وفكـره ونضالـه وثباتـه عـلى مبادئـه، ويكفيـه أنـه عـالم واجـه سـلطانًا جائـرًا وقـال لـه «كفايـة»!

فقـد شـارك في تأسـيس حركـة «كفايـة» لنتعلـم أن العـالم والمفكـر والفيلسـوف ليـس شرطًـا أن يكـون مُحلِّقًـا خـارج العـالم، بـل ينبغـي عليـه أن يكـون منخرطًـا فيـه، وعائشًـا عـلى الأرض بـين البسـطاء ووسـط معانـاة البـشر، فالعالِـم عندنـا يفضـل أن يُحلـق بعيـدًا بعلمـه حتـى لا يتعـرض لبطـش السـلطة وينتهـي مشروعـه، لكـن عبـد الوهـاب لم يخـشَ بطـش سـلطة، ولم يبحـث عـن مغانمهـا، ولم يشـغله ذهبهـا، فـكان يجاهـر بمـا يعتقـد أنـه الحـق، ولم يـوازن ولم يـوارب البـاب المـؤدي إلى السـلطة.

ففـي عـام ١٩٧١ حينـما بـدأت مظاهـرات الطلبـة ضـد حالـة

الـلا سـلم والـلا حـرب اشـترك المسـيري في حملـة جمـع التوقيعـات تأييـدًا للطلبـة، وحينـما كتـب الدكتـور فـؤاد زكريـا بيانـه الشـهير الـذي وقَّـع عليـه عـدد مـن كبـار مثقفـي مـصر كان المسـيري مـن أوائـل الموقِّعـين، وقـد ظـن رئيـس الجامعـة آنـذاك أنـه المسـؤول عـن البيـان فاسـتدعاه إلى مكتبـه، وأخـذ يعنفـه لأنـه تسـبب في إغـلاق الجامعـة، فجـاء رده حاسـمًا قاطعًـا: «يـا دكتـور لا فائـدة مـن جامعـة مفتوحـة في بلـد محتـل».

هـذا هـو الدكتـور عبـد الوهـاب المسـيري الـذي خسرنـاه حـين رحـل قبـل قيـام ثـورة ٢٥ ينايـر ٢٠١١ بثـلاث سـنوات، رغـم أنـه كان محرضًـا عليهـا، وداعـمًا لهـا، وداعيًـا إليهـا، كنـا نريـد عالمًـا نسـأله، ومفكـرًا نسـتند إلى آرائـه، لكنـه تـرك لنـا إرثًـا ضخـمًا مـن أعمالـه الصالحـة.

«٢»

المسـيري ثـوريّ الهـوى، فحـين أتـم عبـد الوهـاب عامـه السـادس عـشر، وقـرأ كتـاب مـادة الفلسـفة بـدأ يسـاوره الشـك، وقـرر أن يتوقـف عـن الصـلاة والصـوم حتـى يجـد إجابـة شـافية عـن أسـئلته الشـائكة عـن أصـل الـشر في العـالم والحكمـة مـن وجـوده، وأصـل الكـون!

وتلقـى أفـراد أسرتـه الخـبر بـشيء مـن عـدم التصديـق في البدايـة، لكنهـم كانـوا قـد تعـودوا منـه عـلى مثـل هـذه التحـولات، فقبـل عامـين مـن هـذه الواقعـة انضـم إلى جمعيـة الإخـوان المسـلمين، وكان يقـضي وقتًـا طويـلا مـن الليـل في قـراءة القـرآن مـع أحـد الخـدم!

كان هـذا هـو أول عـام يـدرس فيـه مـادة الفلسـفة، وقـد خلبـت هـذا المـادة لُبَّـه تمامًـا، فقـد كان يقـضي سـاعات طويلـة في قـراءة الكتـاب المقـرر -عندمـا كان الكتـاب المقـرر يسـتحق القـراءة- وقـد سـاعده هـذا عـلى تنويـع أسـئلته وتعميقهـا وصياغتهـا، لكنـه لم يجـد لـدى أفـراد أسرتـه إجابـة عـن أسـئلته، فقـد كانـت أسرة محافظـة تصـلي وتصـوم دون أن تبحـث عـن الحكمـة مـما تفعلـه، فاتجـه عبـد الوهـاب إلى أسـتاذ اللغـة العربيـة في المدرسـة لكنـه لم يجـد لديـه إجابـة تُوقِـف سـيل الأسـئلة التـي كانـت تطـارده.

وتخـرَّج عبـد الوهـاب في المدرسـة الثانويـة، وانطلـق بأسـئلته إلى الجامعـة حيـث التحـق بكليـة الآداب قسـم اللغـة الإنجليزيـة، وهنـاك كان لا بـد أن يمـلأ هـذا الفـراغ في نفسـه، فاتجه إلى الماركسـية، وكان اهتمامـه بهـا فكريًـا فقـط إلى أن التقـى أحـد أعضـاء منظمـة «حدتـو»، الـذي جنَّـده، وصـار عضـوًا في الحـزب عـام ١٩٥٤، وفؤجـئ بتصعيـده في الحـزب لمعرفتـه باللغـة الإنجليزيـة، والمصـادر الأوليـة للفكـر الماركـسي، والمدهـش أن الشـخص الوحيـد الـذي اعـترض عـلى تصعيـده هـو نفسـه!

فقـد قـال لزعـماء التنظيـم: «إنـه لا يجـب تصعيـدي بسـبب خلفيتـي البرجوازيـة، باعتبـار أن والـدي تاجـرًا كبـيرًا، ولا بـد مـن اختبـاري للتأكـد مـن نقـائي الأيديولوجـي»!، ومـع ذلـك اسـتمروا في تصعيـده حتـى صـار مسـؤولا عـن خليـة شـيوعية!

إيمـان المسـيري بمـا يفعلـه جعلـه يثـور عـلى خطيبتـه في أثنـاء سـيرهما عـلى كورنيـش النيـل، فقـد رأت شـحاذًا وأرادت أن تعطيـه صدقـة، لكـن المسـيري نهرهـا وغضـب منهـا، وقـال لهـا محتـدًّا: «دعيـه حتـى يشـعر بالظلـم فيثـور»!

لكـن مـرت الأيـام، وأدرك الدكتـور عبـد الوهـاب المسـيري أنـه

يجب الفصل بين الثورة العامة والبؤس الشخصي الذي لا بد أن تساعد صاحبه.

المدهش أن الدكتور المسيري عاش حياته كلها مضطهَدًا رغم تعدد الأسباب؛ فقد قيل عنه إنه شيوعي، ورأسمالي، وإسلامي في ذات الوقت، مما جعله محكومًا عليه بالهلاك بغض النظر عن الأيديولوجية الحاكمة!

«٣»

في عام ١٩٦٣ وصل إلى أمريكا، يقول: وبمجرد وصولي إلى الجامعة عقدوا للطلبة الدراسين امتحانًا تكون فيه الإجابة إما بـ«نعم» وإما بـ«لا» لتحديد مستواهم الثقافي واللغوي، فقضيتُ وقتًا طويلا في تأمل الأسئلة، وكنت أجد أن الإجابة الصحيحة أو الذكية ليست بنعم أو لا، وإنما تقع بينهما وكانت النتيجة بطبيعة الحال الفشل الذريع بدرجة رسوب لا نظير لها، وقد تقرر بناء على هذا الامتحان أن أدرس اللغة الإنجليزية لمدة عامين قبل أن ألتحق بالدراسات العليا، ولكنني أخبرتهم أن الخلل ليس فيَّ وإنما في الامتحان، فهو سخيف ولا يقيس قدرات الطالب الحقيقية، وأكدت لهم أن أدائي سيكون مختلفا تمامًا إذا ما وضعوا لي امتحانًا آخر بنفس الطريقة، وبالفعل قرروا أن يجرّبوا معي مرة أخرى فحصلتُ على أعلى درجة بين المتقدمين وكانت هذه هي أول مواجهة بيني وبين الحضارة الأمريكية بسذاجتها وأحاديتها وخيلائها.

المسيري كان يريد أن يثبت لواضعي الامتحان أن لديهم خللا في التقييم، وأن معاييرهم قاصرة، ويسهل التحايل عليها، والمرور

منهـا، فهـو يـدرك أن هنـاك «حقائـق كاذبـة» بمعنـى أنهـا حقائـق غـير مزيفـة لكنهـا ليسـت كاملـة، فالحقيقـة الكاذبـة هـي حقيقـة جزئيـة، ومـن ثـم يمكـن توظيفهـا لتبريـر أي سـلوك مهـما كان ظالمًـا.

مـن هـذه الفكـرة انطلقـت رحلـة عبـد الوهـاب المسـيري الفكرية، فهـو يبحـث عـن الإجابـة الكاملـة، والحقيقـة غـير الملفَّقـة، ولا يخـشى مـن طـرح الأسـئلة، ولا يمـلّ مـن البحـث عـن الأجوبـة، وهـذا مـا فعلـه في موسـوعته الأهـم عـن «اليهـود واليهوديـة والصهيونيـة» التـي حـاول أن يكشـف فيهـا تلـك «الحقائـق الكاذبـة»، وقـد ظـل ٣٤ عامًـا يجهّـز موسـوعته الكـبرى منـذ أن بـدأ في كتابتهـا عـام ١٩٦٤ حتـى سـلَّمها للنـاشر عـام ١٩٩٨، وحـين صـدر أول أجـزاء الموسـوعة في عـام ٧٥ لم يلـقَ الاحتفـاء الـذي يليـق بالجهـد المبـذول فيـه، لأن النظـام الحاكـم آنـذاك كان قـد بـدأ طريقـه نحـو تطبيـع العلاقـات، وهـذا النـوع مـن الكتابـات يزعـج السـلطات!

obeikandl.com

٣٠ عامًا من العزلة

«١»

هو عالم أكثر من كونه كاتبًا، ومفكر أكثر منه باحثًا، لكن مؤلفاته وحدها جعلته واحدًا من أولياء الكتابة الصالحين.

إنه الدكتور جمال حمدان صاحب ملحمة «شخصية مصر»، و«اليهود أنثربولوجيًّا»، و«استراتيجية الاستعمار والتحرير»، و«٦ أكتوبر في الاستراتيجية العالمية»، وغيرها من المؤلفات التي تُعَّ مراجع مهمة وفذَّة.

لكن رغم كثرة مؤلفاته وأهميتها فإنه لم يتكسب منها، فقد عاش زاهدًا، يكفيه كوب لبن وكوب زبادى وكسرة خبز، ويجلس في الصيف مرتديًا «بنطلون وفانلة»، وفي الشتاء يرتدى «روب» قديمًا أحمر اللون، فوق البيجامة، وبيته لا يوجد به قطع أثاث إلا في أضيق الحدود، فالصالون بسيط والستائر بالية، والأرضية من الخشب، والحوائط معلقة عليها ورقة لـ«مصر للطيران» ومذياع أثري، ومجموعة من الكتب -التي توجد في سحارة، وليست مكتبة- والصحف التي يقوم بقراءتها بشكل منتظم.

لكن رغم هذه الحياة التي يصعب تصويرها وتصوّرها فإن جمال لم يلهث خلف أضواء الشهرة، بحثًا عن المال، ولم يتسلل دخول التاريخ من الأبواب الخلفية، ولم يحاول التسويق لنفسه من خلال وسائل الإعلام، ولم يكن يقبل المساعدة من أحد أيًّا كانت درجة حبه وتقديره له، لذلك لم يتردد أن يقطع علاقته

بالكاتب الكبير أحمد بهاء الدين، الذي كان واحدًا من أقرب الناس إلى قلبه، عندما كتب يطالب المسؤولين عن جامعة القاهرة بإعطائه مقابلا ماديا محترمًا يكفل له حياة كريمة، وعندما أرسل إليه الأستاذ هيكل التليفزيون الفرنسي لعمل لقاء معه بمقابل مادي كبير يصل إلى آلاف الدولارات رفض عمل اللقاء لشعوره أنه نوع من المساعدة من هيكل له بطريقة غير مباشرة.

وحين ذهب إليه الأستاذ هيكل وطرق باب بيته دون ميعاد سابق، لم يفتح له الباب، وبعدها أرسل إليه الأستاذ برقية جاء فيها: «لم أتجاسر هذه المرة أن أطرق بابك على غير موعد، وهكذا إني أكتب إليك لأقول إننا عدنا إلى القاهرة بعد غياب أسابيع، وكما اتفقنا قبل أن أسافر فإني أترك لك اختيار الوقت الذي تراه مناسبًا لكي نلتقي مرة أخرى. ولست أعرف المواعيد المناسبة لك في الأسبوع القادم الذي يبدأ من السبت الأول من يونيو، لكنه سوف يسعدني إلى أبعد حد أن أسمع منك، ومع التحية أرجوك أن تقبل صادق الود والتقدير».

«٢»

قليلون مَن اخترقوا حاجز صمته، وعبروا باب شقته، ورأوه في سنوات عزلته، وجلسوا في صحبته، وتحدثوا معه خلال ثلاثين عامًا قضاها بمفرده.

لذا الكتابة عنه مغامرة، وقراءة كتبه تحتاج إلى مثابرة، والجمع بينهما يحتاج إلى عُزلة تجلس فيها وحيدًا تتأمل وتفكر، وتفسر لتكتشف شخصية الرجل الذي كشف لنا «شخصية

مـصر» ذلـك الكتـاب الـذي ارتبـط باسـمه.

إنـه العـالم والمفكـر جـمال حمـدان الـذي وُلـد في ليلـة النصـف مـن شـعبان يـوم الأربعـاء ٤ مـن فبرايـر عـام ١٩٢٨.

هنـا في قريـة نـاي، إحـدى قـرى مركـز قليـوب بمحافظـة القليوبيـة، وضعـت زوجـة الأسـتاذ صالـح مـدرِّس اللغـة العربيـة مولودهـا الرابـع جـلال الـذي كانـت تناديـه أسرتـه باسـم «لولـو» عـلى سـبيل التدليـل، وكانـت تطلـق عليـه جارتـه الإيطاليـة اسـم «جـمال»، وحـين ذهـب لتحريـر اسـتمارة امتحـان الشـهادة الابتدائيـة اكتشـف أن مسـؤول السـجل المـدني أخطـأ وكتـب «جـمال محمـود صالـح» بـدلا مـن «جـلال محمـود صالـح» وعلـم والـده بمـا حـدث وحـاول تغيـير اسـم ابنـه؛ نظـرًا إلى أن لديـه ابـن آخـر يدعـى «جـمال الديـن»، لكـن جهـوده بـاءت بالفشـل ليصبـح لديـه «جـمال الديـن وجـمال».

لكـن جـمال واحـد فقـط هـو الـذي سـيخلّد اسـم عائلتـه إلى الأبـد، لكنـه سـيحيا وحيـدًا في مجتمـع لا يقبـل العباقـرة ولا يُفسـح لهـم المجـال، لذلـك قـرر منـذ البدايـة أن لا يكـون شـبيهًا بأحـد، وكتـب عـلى حياتـه بخـط عريـض «ممنـوع الاقـتراب أو التصويـر»، وكان دقيقًـا حـين شـخَّص مشـكلة الإنسـان المـصري بقولـه: روح السـماحة والدماثـة، تلـك المقولـة واحـد مـن أخطـر عيـوب مـصر، وهـي أنهـا تسـمح للرجـل العـادي المتوسـط، بـل للرجـل الصغـير، بأكـثر مـما ينبغـي وتفسـح لـه مكانًـا أكبر مـما يسـتحق، وفي الوقـت نفسـه تضيـق بالرجـل الممتـاز، إذا لم يكـن في توسـطها ووسـطيتها، وأفضـل مـكان لـه خارجهـا، فـشرط النجـاح في مـصر أن يكـون اتباعًـا لا إبداعيًّـا، ومواليًـا لا معارضًـا.

«٣»

في الثالثة والنصف من عصر يوم السبت الموافق ١٧ أبريل عام ١٩٩٣ شعر سكان العقار ٢٥ بشارع «أمين بك الرافعي» في الدقى برائحة «حريق» هائل تخرج من الشقة رقم واحد، فسارع أحد الجيران نحو عساكر الأمن الموجودين أمام البيت المجاور رقم ٢٣ الذي كان يسكن فيه فاروق سيف النصر وزير العدل آنذاك، وبالفعل جاء الحراس وكسروا باب البيت -الذي لم يُفتح طوال ثلاثين عامًا إلا مرات معدودة وبمواعيد محددة وبطَرْقَات مميزة- بمساعدة بعض الأهالي ليجدوا هرم الجغرافيا الأكبر في تاريخ مصر الدكتور جمال حمدان وقد سقط على الأرض محروقًا!

بادر أحد الأشخاص بالاتصال بمطافئ وإسعاف الدقي ليبلغ عن احتراق رجل في شقته، وبعد دقائق معدودة حضرت المطافئ، ثم بعد نصف ساعة جاءت سيارة الإسعاف، وليتها ما جاءت، لأن السادة المسعفين بعد أن حملوا الجثة إلى خارج الشقة ألقوا بها على الأرض عندما تأكدوا أن الرجل قد مات وبالتالي خرج عن دائرة اهتماماتهم! وقالوا لجيرانه الذين ازدحم بهم مدخل العمارة: «اتصلوا بقسم الشرطة؛ هو المسؤول عن الموتى» وتركوا جثته على الأرض وذهبوا، ليعيش العالِم الكبير غريبًا -بل مُهانًا- في وطنه حيًّا وميتًا! ربما لو كان لاعبًا أو راقصة لقامت الدنيا لرحيله، لكن عمومًا «هيَّ دي مصر يا جمال»!

رحل جمال حمدان بعد أن قضى ثلاثين عامًا بمفرده دون أنيس أو جليس بعد أن قرر أن يعتزل النساء أيضًا؛ فلم يتزوج من

الإنسانة التي أحبها في بريطانيا وتُدعى «وليما» وظلت تلازمه في كل شيء طوال سنوات الجامعة وكانت تدرس علم المصريات بنفس الجامعة التي يدرس بها لكنها لم تتقبل فكرة أن تعيش معه في مصر فعاد وتركها -على حد تعبير أخيه الدكتور عبد الحميد حمدان- ودخل عزلته ولم يفكر في الخروج مرة أخرى لصخب الحياة، بل قال بوضوح في أحد حواراته: «لن أخرج حتى ينصلح حال المجتمع، ولا أعتقد أن هذا سيحدث»، ربما لم يكن الدكتور حمدان في حاجة إلى مجتمع لا يحتفي بالعباقرة، لكن المؤكد أن المجتمع كان في أشد الحاجة إليه ليهديه إلى الطريق الذي يعرف نهاياته بدقة.

رحل عبقري الزمان والمكان دون أي اهتمام من مسؤولي الدولة الذين ذهبوا في هذا اليوم إلى تركيا للقيام بواجب العزاء في رئيس وزرائها في الوقت الذي كان فيه عالمنا الجليل مُلقًى على الأرض ينتظر من يحمله إلى قبره، لتخرج جريدة «الأهرام» الغرَّاء في اليوم التالي تعلن الحداد ثلاثة أيام لا لوفاة واحد من أساطير العلم في مصر وإنما لوفاة سيادة رئيس وزراء تركيا، أما التليفزيون المصري الرائد فلم يذكر في نشرة السادسة ولا حتى التاسعة في نفس اليوم أو حتى في اليوم التالي خبر وفاته! في حين أنه في بلاد أخرى يقطع التليفزيون إرساله لمن أقل منه منزلة. ربما لو نحَّى هذا العالِم علمَه جانبًا وسخَّر كل جهوده واستثمر كل مواهبه في العلاقات العامة والدعاية لنفسه، كان له شأن آخر وعرفه جيرانه الذين يسكنون أمامه والذين حين سألتهم عنه قالوا بدهشة: «معقولة كان في عالم كبير ساكن قصادنا»!